**المحور الثاني: العمران في الفكر الإسلامي/ماستر1وسيط/أ.مطهري.**

**الجزء الثاني: ضوابط وأسس تخطيط وتحصين المدن عند بعض المفكرين المسلمين:**

**ثانيا- شروط التخطيط و التحصين**

أما فيما يخص التقسيم و التخطيط الداخلي للمدينة و الشروط الواجب توفرها، فقد ذكر بعضها القزويني بقوله: "على الباني أن يتخذ للمدينة سورا حصينا منيعا، و للسور أبوابا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول و الخروج، بل يدخل و يخرج من أقرب باب إليه، و اتخذوا لها قهندازا لمكان ملك المدينة، والنادي لاجتماع الناس فيه، و في البلاد الاسلامية المساجد و الجوامع و الأسواق والخانات و الحمامات، و مراكض الخيل و معاطن الإبل و مرابض الغنم، و تركوا بقية مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناه الملوك و العظماء على هذه الهيئة، فترى أهلها موصوفون بالأمزجة الصحيحة والصور الحسنة و الأخلاق الطيبة، و أصحاب الآراء الصالحة و العقول الوافرة"[[1]](#footnote-1).

 و يؤكد القزويني على هذا بأنه عند حصول الهيئة الاجتماعية للناس فإنهم لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر و البرد و المطر و الريح، و لو تستروا بالخيام و الحرقهات لم يأمنوا مكر اللصوص و العدو، و لو اقتصروا على الحيطان و الأبواب كما نرى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي بأس، فألهمهم الله اتخاذ السور و الخندق و الفصيل، فحدثت المدن و الأمصار و القرى والديار[[2]](#footnote-2).

 و قد ذكر لنا الفرسطائي هذه المعايير فقال: "و إن أرادوا أن يحدثوا منزلا في أرضهم ويجاورهم أراضي غيرهم فالذي يجب أن يفعلوه في هيئة المنزل أن يجعلوا له أربعة أبواب، و يجعلوا فيه شارعين من الشرق إلى الغرب شارع، و من القبلة إلى الشمال شارع، و ينفذون طرق الدور إلى الشارع من غير مضرة لأحد على جاره، و هذا فيما حواه المنزل، و الذي يجب للمنزل من الطرق أربعة، قبلي وشرقي و جبلي وغربي، و منهم من يقول يجعلون له الصبا، و الدبور و الجنوب و الشمال، و منهم من يقول يجعلون له طريقا إلى الفحص لمراعيهم، و طريقا إلى الجبل و طريقا إلى الماء و آخر إلى السوق، و إن كفاهم أقل من هذا فلهم ذلك، و إن احتاجوا إلى خمسة طرق أو أكثر فيما لا غنى لهم عنه و لا بد لهم منه فلهم ذلك كله، سواء في هذه المعاني أرجعت لهم إلى ناحية واحدة أو افترقت، فكل ما لا بد لهم منه يدركونه ويحدثونه"[[3]](#footnote-3).

 و يوضح كيفية بناء القصر –يعني الصحراوي- من تحديد الأرض و تقسيم المنازل فيه وكيفية البناء و نظامه، و إقفال البوابة و الشرفات و الساحة و البئر و البيوت[[4]](#footnote-4).

 و عندما تناول ابن أبي الربيع عمارة البلدان فإنه قسمها إلى قسمين مزارع و أمصار، فأما المزارع فهي أصول المواد التي بها يقوم أود الخلق و يلزم فيها حقوق ثلاثة، الأولى للقيام بمصالح المياه لينتفع بها القريب و البعيد، الثانية كف الأذى عنهم، لأن لا يشتغلوا بغير الزراعة، الثالثة تقدير ما يؤخذ منهم بحكم الشرع و العدل حتى لا ينالهم خوف و لا عسف، فإن حيف عليهم شيء من ذلك أو عسف بهم انعكس الصلاح إلى ضده.

 و أما الأمصار و هي الأوطان الجامعة و المقصود بها خمسة أمور، أولها أن يستوطنها أهلها طلبا للدعة و السكون، ثانيها حفظ الأموال فيها من الاستهلاك، ثالثها صيانة الحريم و الخدم من الانتهاك، رابعها التماس ما تدعو الحاجة إليه من متاع أو غيره، خامسها لا يتعرض للكسب و طلب المادة[[5]](#footnote-5).

 و عموما انطلقت المدينة الاسلامية في نشأتها و تطورها من محاور أساسية في التخطيط بلورها "ابن الربيع" في ثمانية شروط[[6]](#footnote-6) أوجب على الحاكم اتباعها عند تخطيط المدينة نجملها في ما يلي:

1. أن تسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسر، أي أن تكون مصادر المياه متوفرة، مع وجوب تسهيل إيصال الماء العذب إلى سكان المدينة عن طريق تخطيط شبكات التوصيل سواء أكان ذلك بالقنوات أو الأنابيب، أو بحفر الجداول أو بنقله على ظهور الدواب[[7]](#footnote-7).

 و جاء توفير الماء في مقدمة الشروط لأن تأخره يتسبب في إحداث خلل و نقص في كفاءة المدينة ويحدث تعارض مع عناصر التخطيط الباقية[[8]](#footnote-8).

1. أن يقدر طرقها و شوارعها حتى تتناسب و لا تضيق حتى يسهل على الناس التنقل بحرية كما يسهل على الدواب المحملة السير و التقاطع دون أن تتصادم، و هكذا نجد في المدينة شبكة محكمة من الطرقات والمسالك منها الكبيرة كالشوارع، و المتوسطة كالأزقة و الصغيرة كالدروب، تأثرت كلها بالأحكام الفقهية فكان مثلا في الفصل في موضع الطريق كما رأينا يأخذ بالحديث الشريف أي عرض الطريق سبعة أذرع (حوالي 3.5م).
2. أن يبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها، حيث كان أول ما يختط في التكوينات المعمارية للمدينة هو المسجد الجامع افتداء بما فعله الرسول صلى الله عليه و سلم عندما هاجر إلى المدينة، فقد وجد في البداية و في الغالب مسجد جامع واحد، و عدة مساجد أحياء بحيث كان لكل حي مسجده الخاص، و يؤدون الصلاة الجامعة في المسجد الجامع، لكن مع تطور العمران و توسع المدينة وتعدد أريافها، أصبح انشاء مسجد جامع بالربض مع شرط وجود حدود مادية فاصلة كنهر أو سور أو مثل ذلك[[9]](#footnote-9) مثل ما حدث بالقاهرة التي كانت بها أربعة مساجد هي: جامع عمرو، و جامع ابن طولون، والجامع الأزهر، و جامع الحاكم.

 و نظرا للأهمية الدينية و السياسية التي كان يمثلها هذا الصرح، في خطة المدينة نجد أما بجواره بقع مقر السلطان أو الحاكم أو الخليفة، و هذا ما قام به الرسول صلى الله عليه و سلم.

1. يقدر أسواقها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، يعتبر السوق من المرافق الأساسية في المدن، وصارت مرفقا ضروريا لحياة المجتمع المسلم، يقوم على أسس اسلامية جديدة جددها الرسول صلى الله عليه و سلم، عندما قال: "**هذا سوقكم فلا يضيق و لا يؤخذ فيه خراج**"[[10]](#footnote-10)، و كانت سوق المدينة فضاء واسعا لا بناء فيه، لكن مع تطور النشاط التجاري، و تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدن الاسلامية، تنوعت الأسواق و أصبحت الدروب و الأحياء تسمى بنوع التجارة والحرفة السائدة فيها كالنحاسين و الدباغين و غيرها.
2. يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادا مختلفة متباينة، و ذلك بأن يجعل كل قبيلة في حي خاص بها لها مساجد أحيائها و حوانيتها و أحيانا لها مقبرتها الخاصة بها و يجمعهم المسجد الجامع كما كان ذلك في المدن الأولى التي بناها المسلمون كالكوفة و القيروان[[11]](#footnote-11)، و هذا الشرط يشير إلى مشكلة صراع الأجناس التي ظهرت في مدينة بغداد في حكم المعتصم بالله، بعدما أهمل هذا الأخير الجنسين العربي و الفارسي و اهتم بالأتراك الذين كانوا يشكلون المحرك الرئيسي لجنده و جيشه[[12]](#footnote-12).
3. إذا أراد سكانها فليسكن أفسح أطرافها، و يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته، و هذا لتأمين مركز السلطة بعزله عن مواضع سكن الرعية أو العامة بحيث كان الأعوان المقربون هم الذين يقطنون في مناطق قريبة من الحاكم، الذي كان يحرص على جعل خواصه محيطين به من سائر جهاته، حتى لا يتعرض مواكبه و رجاله لأذى العامة و المارة من أهل الفتنة و الثائرين ضد الحكم و من الأمثلة على ذلك أبو جعفر المنصور الذي خط لأتباعه المقربين مناطق مكية بجوار قصره ببغداد، والمعتصم في سمراء، و المعز بالقاهرة...[[13]](#footnote-13).
4. أن يحيطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة أي أن تأمين المدينة في صياغة ابن الربيع يعني تأمين كيان عضوي واحد فهي بمجملها "دار واحدة" و يكشف هذا عن النظرة المتكاملة لتخطيط المدينة و ارتباط تكويناتها المعمارية ارتباطا واحدا، فكان السور لا يبنى إلا بعد أن تستقر كل قبيلة في مكانها و تترك فراغات (رحاب) بينها لمن أراد السكن فيما بعد، أو لإمكانية اتساع المدينة، ثم يبنى السور الذي يضم كل السكان[[14]](#footnote-14)، و أدى التطور العمراني إلى توسع نطاق الأسوار و وصلها ببعضها عن طريق أبواب تربط الحارات و الأحياء بقلب المدينة و مركزها، حيث دعا تأمين المدينة إلى تقسيمها إلى دروب و أزقة تغلق عليها الأبواب ليلا فتعزل كل حارة عن الأخرى عزلا تاما، و تؤمن من خطر اللصوص و تمكن الحراس من السيطرة على الحالة الأمنية[[15]](#footnote-15)، و من المدن التي تبلور فيها هذا النظام، بغداد و القاهرة وقرطبة و فاس و تيهرت[[16]](#footnote-16).
5. أن ينقل إليها من أهل العلم و الصنائع بقدر الحاجة إلى سكانها، حتى يكتفوا بهم و يستغنوا عن الخروج إلى غيرها، و هذا الشرط يعتبر من المقاييس التي تميز المجتمع الحضري للمدينة بما توفره من الخدمات المتمثلة في نشاط أهل العلم و الصنائع الذين يكفون المدينة حاجاتها، و أبرز الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة المهدي حيث كان يسكن هو و أهله بالمهدية، و أسكن العامة في زويلة، وكانت دكاكينهم وأموالهم بالمهدية، و بزويلة مساكنهم، و كانوا يدخلون بالنهار المهدية للعمل والكسب، و يخرجون بالليل إلى أهاليهم فقيل للمهدي: "إن رعيتك في هذا في عناء فقال: لكن أنا في راحة لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم، و بالنهار أفرق بينهم و بين أهاليهم، فآمن غائلتهم بالليل، و النهار"[[17]](#footnote-17).

 لقد ساهمت هذه الفئات في تطور المدينة الاسلامية فتقدمت الصناعات بأنواعها و ازدهرت التجارة، و ارتقت الخدمات ارتقاء واضحا في إطار النظم و القوانين التي تقوم على تنفيذها المؤسسات التي تسهر على نظام المدينة الاسلامية و رعاية شؤونها و توجيه تخطيطها، و حل مشاكلها، و منها السلطة الادارية ممثلة في الوالي و أعوانه و في السلطة القضائية و أجهزة الأمن والمراقبة كجهاز الشرطة والمحتسب.

 و من خلال هذه الشروط الثمانية تتضح لنا الأسس و القوانين العامة التي كانت تحكم تخطيط المدينة الاسلامية، بطريقة تثبت أن التخطيط العمراني قام على معايير توافق قيم الدين الاسلامي و تخضع للأحكام الفقهية، و التي كانت تعنى بحاجات المجتمع المادية و الروحية، الفردية والجماعية، مستفيدة وآخذة مما صلح من الحضارات السابقة.

 نستنتج من خلال ما سبق أن المدينة كما تعرفها المعاجم العربية و القواميس اللغوية مأخوذة من مدن بالمكان أي أقام به، كما أنها في التعريف الاصطلاحي الحديث، حقيقة مادية مرئية في المظهر، من حيث الكثافة السكانية، و الكتلة البنائية و البعد التاريخي، فالمدنية تاريخيا تعد وحدة تشكيلية قديمة خبرها المجتمع الانساني منذ زمن بعيد، و هي أعظم إنجاز حضاري حققه الانسان، وعليه ليست المدنية بخبرة جديدة من التفكير الانساني أنها جاءت كما يعتقد بعضهم نتيجة الثورة العلمية التي نبتت بذورها منذ أكثر من قرن فقط، بل هي خبرة قديمة عرفتها حضارات الشرق القديم من سومرية و فرعونية، كما عرفتها الحضارات اليونانية و الرومانية، و من ثم يمكننا القول أن العالم القديم كان عالم مدن و إن كانت كل مدينة تعد في حذ ذاتها علما قائما بذاته.

 و في العصور الوسطى و في ظل الحضارة العربية الاسلامية نشأت العديد من المدن كان لبعضها الطابع العسكري مثل البصرة و الكوفة و الموصل و الفسطاط و القيروان، و بعضها لها الطابع الاداري كواسط، و بعض منها لها الصفة السياسية كبغداد و القاهرة، و بعض آخر لها الطابع الديني كالنجف وكربلاء و تيهرت، فازدهرت هذه المدن في ظل الحضارة الاسلامية و صارت مضربا للأمثال في مظاهرها العمرانية و أنماطها الاجتماعية و معالمها الثقافية و الفنية، من ذلك ما وصلت إليه البصرة و الكوفة في عهد الأمويين و العباسيين و القاهرة في عهد الفاطميين، القيروان في عهد الأغالبة و تيهرت في عهد الرستميين، فالمدينة على حد تعبير "لابلاش" كالشجرة تربتها الجغرافيا وملؤها التاريخ.

 لقد أشار معظم المفكرين إلى أن الاجتماع الانساني ضرورة لا بد منها بسبب أن الانسان لا يمكنه أن يحصل على الغذاء بمفرده خاصة ذلك الغذاء الذي يتطلب الجهد الكبير للانتفاع به كالزرع، كما أنه بحاجة إلى اللباس و المسكن و العلاج و الدفاع عن نفسه، ضف إلى ذلك الغريزة البشرية وميله إلى الأنس، لذلك وجب عليه الاجتماع، ثم أن هذا الاجتماع إنما يكون في منطقة تصلح للسكن، لهذا حدد المفكرون شروطا و بينوا سلبية المناطق التي لم تختر بعناية، كما وصفوا ضوابط وأسس الاستقرار والتعمير كتوفر الماء و اتساع الطرق و تعددها و وجود المسجد الجامع و مساجد الأحياء مع ضرورة وجود السوق وإحاطة المدينة بسور، و أن ينقل إليها أهل العلم و الصنائع الذين يساهمون في تطوير و ازدهار المدينة حضاريا.

1. - القزويني: المصدر السابق، ص8. [↑](#footnote-ref-1)
2. - نفسه، ص نفسها. [↑](#footnote-ref-2)
3. - الفرسطائي: القسمة و أصول الأرضين، تحقيق و تقديم، بكير بن محمد الشيخ بلحاج، محمد صالح الناصر، المطبعة العربية، جمعية التراث القرارة، ط2، غرداية، 1997، ص 119- 120. [↑](#footnote-ref-3)
4. - الفرسطائي: المصدر السابق، ص- ص 192- 198، محمد بن حمة: المرجع السابق، ص76. [↑](#footnote-ref-4)
5. - ابن أبي الربيع : المصدر السابق، ص 151- 252. [↑](#footnote-ref-5)
6. - ابن أبي الربيع: نفسه، ص154. [↑](#footnote-ref-6)
7. - مفتاح سعيدة: المرجع السابق، ص33، محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية، المرجع السابق، ص 112- 113. [↑](#footnote-ref-7)
8. - مفتاح سعيدة: المرجع السابق، ص34. [↑](#footnote-ref-8)
9. - عبد العظيم المنذري: مختصر صحيح مسلم، المصدر السابق، ص251. [↑](#footnote-ref-9)
10. - ابن ماجة: سنن ابن ماجة، كتاب التجارات، باب الأسواق و دخولها، رقم 2233، محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية، المرجع السابق، ص113، مفتاح سعيدة: المرجع السابق، ص35. [↑](#footnote-ref-10)
11. - الطبري: المصدر السابق، ج2، ص280، اسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، د.ت، ص 239- 240، موسى لقبال: المغرب الاسلامي، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1981، ص29. [↑](#footnote-ref-11)
12. - سعيدة مفتاح : المرجع السابق، ص37. [↑](#footnote-ref-12)
13. - نفسه، ص39. [↑](#footnote-ref-13)
14. - محمد بن حمو: مجلة القرطاس، المرجع السابق، ص71. [↑](#footnote-ref-14)
15. - سعيدة مفتاح: المرجع السابق، ص40. [↑](#footnote-ref-15)
16. - و قد أشار ابن الصغير إلى أن يعقوب بن أفلح أمر بأبواب المدينة فغلقت إلا بابا واحدا، ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق و تعليق محمد الناصر و ابراهيم بحاز، ديوان المطبوعات الجميلة، 1986، ص97، و يقول سليمان الباروني: "فأمر يعقوب بأبواب المدينة فأغلقت و ترك واحد وقف عليه بنفسه مع من كان معه"، سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، ط3، دار البعث، قسنطينة، 2002، ج2، ص360. [↑](#footnote-ref-16)
17. - سعيدة مفتاح: المرجع السابق، ص41. [↑](#footnote-ref-17)